King Faisal
PRIZE

طرق التجارة في العالم الإسلامي

الأستاذ الدكتور عبدالحميد حمودة: سيرة ومسيرة

اللأستاذ الدكتور عبدالحميد حسين محمود حمودة من جمهورية مصر العربية، من المؤرخين البارزين الذي أثروا المكتبة العربية بدراساتهم ومؤلفاتهم القيّمة التي استهدفت مختلف حقول التاريخ الإسلامي مكانًا وزمانًا.

ولد أ.د. عبدالحميد في الحادي عشر من شهر يناير عام 1961م في فاقوس بمحافظة الشرقية، وتلقى تعليمه العام والجامعي في مسقط رأسه حتى حصل على الشهادة الجامعية من جامعة الزقازيق في العام 1983م، والماجستير في التاريخ الإسلامي بامتياز من الجامعة نفسها في العام 1988م. وحصل على الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى في التاريخ الإسلامي من جامعة المِنْيَا عام 1988م، آنخرط بعدها في العمل الأكاديمي الذي تدرّج في سلالمه الوظيفية الأكاديمية بجامعة القاهرة – فرع الفيوم، ثم في جامعة الفيوم بعد استقلالها عن الجامعة الأم حتى حصوله على الأستاذية في وقت قياسي في العام 2009م. وخدم جامعته ومجتمعها بِتَوَلِّيْهِ عددًا من المناصب العلميّة والإشرافيّة والإداريّة آخرها عميد كلية الآداب بجامعة الفيوم لمدة ثلاث سنوات بدءًا من العام 2015م.

ولم تقف المهام الإشرافيّة والإداريّة التي تقلّدها أ.د. عبدالحميد حمودة في جامعته عائقًا في سبيل شغفه بالتميّز العلميّ الذي ضرب فيه بسهم وافر: بحثًا ودراسة وتأليفًا؛ فبلغت بحوثه المنشورة في مجلدات علميّة محكّمة عشرين بحثًا، وبلغت كُتُبُه - غير تلك التي أطلق عليها اسم موسوعة - ستة عشر كتابًا، شملت موضوعات شتّى في التاريخ الإسلاميّ بمختلف عصوره ودُوَلِهِ، منها تاريخ الدولة العربيّة الإسلاميّة، وتاريخ المغرب في العصر الإسلامي، وتاريخ الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتاريخ الدول الإسلاميّة المستقلّة عن جسم الخلافة العباسيّة في المشرق الإسلاميّ، وتاريخ كل من الدولة الأمويّة والدولة العباسيّة، وتاريخ المشرق الإسلاميّ منذ ظهور السلاجقة حتى الغزو المغوليّ، والعلاقات الدوليّة في الإسلام، وتاريخ الأندلس في العصر الإسلاميّ، ووسائل الترفيه عند المسلمين وغيرها.

واختصّ بلده مصر بأربعة من مؤلفاته المنشورة؛ أحدها في تاريخ مصر الإسلاميّة العام، وهو تاريخ مصر وحضارتها منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأخشيديّة، والثلاثة الأخرى في التاريخ المحليّ لمصر، وهي: تاريخ الفيوم السياسيّ والحضاريّ، وتاريخ الصَّعَيْد الأعلى في العصر الفاطميّ، والحضارة الإسلاميّة في إقليم الدلتا في العصر الفاطميّ. ومعلوم مدى أهمية التاريخ المحليّ لما فيه من إضافة علميّة لتاريخ الأقاليم التي لم تنلّ حظّها من الذكر في مصادر التاريخ العام؛ كونها بعيدة عن العواصم الرئيسيّة، حيث يقيم الخلفاء والسلاطين، وحيث تُتخذ القرارات المصيريّة التي سجّلها التاريخ في صحائفه، وتداولتها وتناقلتها الأجيال حتى وصلت إلينا، ولم يَحْبِس الدكتور عبدالحميد نفسه في تخصّصه الدقيق من التاريخ الإسلامي، بل تعدّى ذلك إلى التأليف في تاريخ العرب قبل الإسلام، وعنايته بالتاريخ المحليّ لمصر، إضافة إلى اهتمامه الواسع بكثير من بلدان العالم الإسلامي بمختلف عصوره وميادينه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية.

أما مؤلفات الدكتور عبدالحميد المتعدّدة الأجزاء التي صدّر عنواناتها بكلمة: موسوعة (Encyclopaedia) فلمؤلّفها باع طويل فيما أسهم به في بابها، وهي على جانب كبير من الأهميّة، والفائدة العلميّة، ولا يستغني عنها أي باحث في الموضوعات التي تناولتها، ومنها: موسوعة تاريخ صدر الإسلام وحضارته التي تقع في ستة أجزاء هي: الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة، والدولة الإسلامية في المدينة المنورة، ثم عصور خلافة كل من أبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، أي أنها تغطّي بشموليّة تامة عصر النبوة والخلافة الراشدة، وفي ذلك خدمة جلّى للمعرفة البشرية بتلك الحقبتين المهمتين من مبتدأ التاريخ الإسلامي.

أما العمل الموسوعي الثاني لسعادة الدكتور عبدالحميد فهو موسوعة تاريخ الدول الإسلامية وحضارتها بالمشرق الإسلاميّ. ويجئ هذا العمل في عشرة أجزاء تغطّي تاريخ عدد من الدول المنقطعة في شرق العالم الإسلاميّ، هي: كل من تاريخ الدولة الطاهريّة، والدولة الصَّفَّاريّة، والدولة الزياديّة، والدولة السامانيّة، والدولة البويهيّة والدولة الغزونويّة، والدولة السلجوقيّة، والدولة الغوريّة، والدولة الخوارزميّة.

أما العمل الثالث، وهو طرق التجارة في العالم الإسلامي، فهو مكوّن من خمسة أجزاء شملت طرق التجارة في المشرق الإسلامي، وطرق التجارة في العراق وبلاد فارس، وطرق التجارة في الجزيرة العربية وبلاد الشام، وطرق التجارة في مصر والصحراء الكبرى الإسلامية، وطرق التجارة في المغرب والأندلس، وهو العمل الذي استحق عليه أ.د. عبدالحميد عن جداره منحه جائزة الملك فيصل للدراسات الإسلامية. وهو لم يكتف بالحديث عن طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب كما فعل سابقُه الدكتور نعيم زكي فهمي رحمه الله، بل إلى جانب ذلك كلِّهِ أخذ القارئ الكريم معه في رحلة تجاريّة إلى كل الأقاليم التي كتب عن تجارتها البحريّة والبريّة، ليطلعه على محطاتها، وأسواقها التجارية، ومواقع الأسواق من تخطيط مدنها، والجهاز الإداري الذي يشرف على تلك الأسواق، وأصناف التجارات والبضائع والسلع، وطوائف التجار، والمعاملات التجارية والمالية من حيث الموازين والمكاييل، والمقاييس، وطرق البيع والشراء، ووسائل التعامل المالي بما فيها المقايضة، والعملة، والصكوك والصَّيْرَفَة، والودائع, ونظام الحِسْبَة، ومراقبة الأسواق والمنشآت التجارية، بل إن مؤرخنا د. عبدالحميد في حديثه عن أسواق المشرق، على سبيل المثال لا الحصر، لم يغفل وسائل النقل على الطرق البريّة، ومنها الجَمَل ذو السنامين المعروف بالبخاتي، والخيول البُخَارِيَّة المعروفة باسم: "الشهاري البخارية" وخيول سمرقند المعروفة باسم "خيول شن" جنبًا إلى جنب مع النُّوْق السَّمَرْقَنْدِيَّة وخلافها.

وقد قرّض هذا العمل العلميّ بأجزائه الخمسة غير واحد من العلماء البارزين ذوي الاختصاص الذين حكّموه بغية مَنْحِهِ الجائزة حيث أثنوا على المنهج المتّبع في تأليفه، فيقول أحدهم: "اعتمد المؤلّف على المنهج التحليلي من حيث قيامة بتتبّع أخبار الطرق التجارية في المصادر التاريخيّة والجغرافيّة والرحلات، واستخدم المنهج المقارن عبر مقارنة نصوص الجغرافيين المسلمين مع نصوص مؤرخين وجغرافيين أوروبيين، كما اعتمد على الوثائق الاقتصاديّة والأثريّة المتعلّقة بالموانئ والطرق التجاريّة. وتميّز أسلوب مؤلّفه بالجمع بين الطابع الأكاديميّ العلميّ واللغة الواضحة السهلة، بجانب كثرة الاستشهاد بالنصوص التاريخيّة التي لم يكتف بسردها فحسب، بل عمد إلى تفسيرها، وتحليلها مع شرح النتائج والانعكاسات الحضاريّة المترتّبة عليها".

وخَلُصَ هذا المُحَكَّم في تقريضِهِ لهذا الكتاب إلى القول: "يظهر بعد قراءة تلك المراجع للمرشّح بموضوعيّة، أنها كُتبت من قبل شخص أكاديميّ مختصّ، وأنه بذل فيها جهدًا كبيرًا، وهي مؤلفات رصينة ومستندة إلى مصادر ومراجع ركّزت على طرق التجارة في العالم الإسلامي مثل: ابن حوقل واليعقوبي، والإدريسي، وياقوت الحموي، والقلقشندي، وابن خلدون، بالإضافة إلى مصادر أجنبيّة مثل Lopez و Marcais. وقد أجاد المؤلّف في تقسيم طرق التجارة إلى مناطق العالم الإسلامي التي نشطت فيها التجارة. وجاء تقسيم الفصول موضوعيًّا، ومستوفيًا لكافة جوانب المعرفة الإنسانيّة بمضامّها المختلفة، وهو مهمّ في مجاله، ويستحق أن يُدرج ضمن المراجع الأساسيّة لأي بحث أو دراسة أكاديميّة حول طرق التجارة في العالم الإسلامي".

ويقول آخر: "تعدّ هذه الموسوعة إضافة نوعيّة إلى دراسات تاريخ التجارة في العالم الإسلامي، إذ تنقل الجغرافيا التاريخيّة من مستوى التجزئة إلى مستوى الشمول الإقليميّ، وأن طبيعتها الوصفيّة تجعلها أقرب إلى عمل توثيقيّ موسوعيّ منها إلى دراسة تحليليّة تفسيريّة؛ لذا فإن القيمة الحقيقيّة للمُؤَلِّف تكمن في جمعِهِ الواسع للمصادر الكلاسيكيّة، وتتبّعه لمسارات التجارة عبر الأقاليم، بينما تبقى الحاجة قائمة لإعادة قراءتها في ضوء مناهج الاقتصاد التاريخيّ، وعلم الاجتماع الحضريّ. وبهذا يمكن القول إن موسوعة طرق التجارة في العالم الإسلامي لمؤلّفها عبدالحميد حمودة تمثّل جهدًا موسوعيًّا كلاسيكيًّا ضخمًا يُثري المكتبة العربيّة في تاريخ التجارة الإسلاميّة".

ويتّضح من تصفّح سيرة أ.د. عبدالحميد الذاتية أن له حضورًا فاعلًا في المؤتمرات والندوات العلميّة التي عُقدت في بلده مصر، وفي خارجها, كما أنه يحظى بالمحبة والقبول لدى أساتذته وزملائه وتلامذته من المصريين الذين ابتهجوا كثيرًا بحصوله على جائزة الملك فيصل في حقل الدراسات الإسلامية، وانضمامه إلى الرعيل الأول من العلماء الكبار الذين مُنحوا إيّاها عن جدارة واستحقاق عبر أكثر من أربعة عقود من عمرها المديد إن شاء الله.

أحمد بن عمر آل عقيل الزيلعي